قانون البلاغة

— ٣ —

ومن هذا الجنس كتاب الحجاج الى المهلب يستزيده في قتال الأزارقة : فان انت فعلت ذلك ، والا شرعت عليك الرمح · فقال المهلب في الجواب : ان شرعت اليّ الرمح ، قلبت عليك ظهر المجن · فهذا المذهب الذي هو التمثيل معاكس لمذهب الإرداف ، اذ كان في ذلك قوة الإسهاب والبسط · وفي هذا قوة الايجاز والجمع ، وهو ايضاً مستعمل في العبارة الشعرية · وقد ذكرنا وجه استعماله في الشعر في الكتاب الذي أفردناه في البلاغة الشعرية ·

ومن عيوب اشتراك اللفظ ، والمعنى ، (الإخلال) ، وهو ان يخلّ من اللفظ بما فيه استيفاء المعنى وتمام المقصد به ، مثل ما كتب كاتب فقال : فان المعروف اذا زجا [1] كان أفضل منه اذا توفر وابطا · فأري ان هذا الكاتب انما أراد ان يقول له : فان المعروف اذا قلّ وزجا ، كان أفضل منه اذا كثر وابطا ، فترك ما به يتم المعنى ، وهو ذكر القلة ·

ومن عيوب هذا الجنس الإخلال بالافادة ، وهو ان يؤتى في الكلام بزيادة لفظ يفسد المعنى ، كما لو قال قائل مثلاً : فان الامر والنهي ، لو ذقتهما ، طيبان · فقوله لو ذقتهما زيادة تفسد المعنى ، وذلك انه لولم يذقهما لم يكونا طيبين ، وليس الطيب والكريه انما يكونان كذلك بذواق الذائق لهما بل هما على هذه الحال بانفسهما ·

ومن عيوب اشتراك اللفظ [2] ان تقدم الفاظاً تقتضي جواباً يأتي بعدها باعادة ما تقدم منها ، فلا يؤتى بالألفاظ باعيانها ، بل ينقل المعنى الذي تدل عليه الألفاظ الى ألفاظ أخر غيرها ، مثل ما كتب بعضهم : فان من اقترف ذنباً عامداً ، واكتسب جرماً قاصداً ، لزمه ماجناه ، وحاق به ما توخاه · فنقل لفظي الاقتراف والاكتساب ، الى لفظي الجناية والتوخي · وكان الأحسن ان يأتي بهما باعيانهما فيقول : لزمه

(١) زجا الامر تيسر واستقام · ولعله (وحى) بمعنى اسرع ليقع في مقابلة (ابطا)

(٢) اسم هذا العيب ساقط من الاصل ·

ما اقترفه ، وحاق به ما اكتسبه ، اذ كان ذلك هو الذي يختاره البلغاء .

ومن عيوب هذا الجنس ، الهذر والتبعيد ، عند الحاجة الى الايجاز والتقريب ، وهذا هو زيادة الألفاظ على المعاني من غير سبب يدعو اليها ، او حاجة تبعث عليها ، والمثالات في ذلك موجودة كثيرة من كلام العامة والدخلاء في الصناعة .

ان من آلة الكاتب وأداته ان يضيف الى الاحسان في المكاتبة ، مثل ذلك في المحاورة والمخاطبة ، حتى تكون ألفاظه مهذبة ، واشاراته مستعذبة ، والنفوس نحوه اذا نطق منصتة . فمن المحاورة المستحسنة قول الفضل بن الربيع فقد قال له الرشيد : كذبت . قال يا امير المؤمنين : وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك [1] ، فوصله . وقال : كذبني فوصلته ، لحسن جوابه . ودخل سعيد بن مرة على معاوية فقال له : انت سعيد بن مرة فقال انا ابن مرة وانت السعيد فوصله لحسن جوابه . وقال السفاح او المنصور للسيد الباقر أأنت السيد . فقال : انا ابن ابي وانت السيد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس : انت اكبر مني فقال : انا أسن ، وانت اكبر مني . وقال سعيد بن عمرو بن عثمان لطويس المخنث : اينا أسن فقال : بابي انت وامي ، لقد شهدت زفاف امك المباركة الى ابيك الطيب . فلو جعل الطيب وصفاً للام قد هجّن بالابن . وعلى حسب مايستحسن هذا الجنس من الجواب ، يستقبح ما كان خلافه من الخطاب . كما يروى ان رجلاً مرّ بابي بكر او بعمر ومعه ثوب وقال تبيعه قال : لا عافاك الله فقال قد علمتم لو تعلمون هلا قلت لا وعافاك الله .

ومما جاء من الدلالة على تفضيل البلاغة ما انا ذاكره في هذا الكتاب قال العباس يا رسول الله فيم الجمال ؟ فقال في اللسان . وزعمت الحكماء ان أعلى الخلق مرتبة الملائكة ثم الانس ، وانما صار لهؤلاء الفضل على سائر اصناف الخلق بالعقل والنطق . وقال مسلمة بن عبد الملك مروءتان ظاهرتان الرياش والفصاحة . ودخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر فاحتقره لدمامة كانت فيه .فقال تسمع بالمعيدي خير من ان تراه . و يقال لا ان تراه . فقال ابيت اللعن ان الرجال ، لا تكال بالقفزان ،

---

(١) تروى هذه العبارة لسهل بن هرون باسلوب آخر .

وليست بمسوك [١] يستقي فيها . وانما المرء باصغريه قلبه ولسانه ان صال صال بجنان ، وان قال قال بلسان . قال الشاعر [٢] :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته او نقصه في التكلم

ومما جاء في وصف البليغ وترتيب البلاغة ما انا ذاكره : حكى الجاحظ عن بعض حكماء الهند انه قال : اول البلاغة جماع آلة البلاغة . وذلك ان يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الامة ، بكلام الامة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون معه من القوة ما يصرّف به لفظه في كل طبقة ، حتى لا يدقّق المعنى اذا خاطب أوساط الناس ، ولا يدع ذلك اذا خاطب حكيماً او كاتب فيلسوفاً .

وقال الجاحظ من شروط البليغ ، ان يكون ذاكراً لما عقد عليه اول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره ، في وزن تصفحه لموارده . قال : وكان خالد بن صفوان يوصف بانه أذكر الناس لاول كلامه ، وأحفظهم لكل ما سلف من منطقه ، فقال فيه الشاعر :

عليم بتأويل الكلام ملقّن ذكور لما سدّاه اوّل اولا
يبذ [٣] فريع القوم في كل مجمع وان كان سحبان الخطيب ودغفلا
ترى خطباء الناس عند ارتجاله كأنهم الكروان عاين أجدلا

وقال بعض نُقّاد الكلام : جماع البلاغة حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعاني ، أو غمض بما بعُد من القول او شرد . وقال بعضهم في تقدير الكلام وترتيبه : ليكن صدر كلامك دليلاً على حاجتك ، كما ان خير أبيات الشعر ما اذا سمعت صدره عرفت قافيته . مثال ذلك ان تفرق بين صدر خطبة النكاح ، وبين صدر خطبة الصلح ، حتى يكون لكل فن من الفنون صدر يدل على عجزه ، واولهُ يشير الى آخره .

---

(١) المسك الجلد او خاص بالسخلة جمعه مسوك والمراد بها القرب والروايا .
(٢) وفي هامش الاصل الخزاعي . (٣) في الاصل يبذ — يفوق .

وقال أعرابيٌ في دعائه : اللهم اني أعوذ بك من فقرٍ مُكبٍّ ، وتضرّع الى غير محب . وقال بليغ : بقدر السمو في الرفعة ، تكون الوقعة . وقال بعض الخطاب : لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا . وذمّ أعرابي رجلاً فقال : كان صغير القدر ، قصير الشِّبر[1] لئيم النجر ، كثير الفخر .

وسمع الحسن بن علي ان نافع بن جبير قال : كان معاوية يسكته الحلم ، وينطقه العلم . فقال : بل يسكته الحصر ، وينطقه البَطر . وقال بليغ : من عرف الناس داراهم ، ومن جهلهم ماراهم . وقال علي بن ابي طالب : هل من خلاص ، او مناص ، او فرار ، او نحار[2] ، او منجا ، او ملجا ، او معاذ ، او ملاذ . وقال رجل لآخر : أتعرفني فقال : أعرفك كثير السعاية ، قليل النكاية . قال المهلب لمالك بن دينار : أتعرفني فقال : نعم انت الذي اوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بينهما يحمل العذرة . فقال : لقد عرفتني حق المعرفة . ووصف اعرابي ناقة فقال : هي كالعقرب اذا هوت ، والحية اذا تلوّت ، تطوي الفلاة وما انطوت .

وقيل للاحنف : كيف تسود الناس فقال : بالخلق السجيح ، والكف عن القبيح . وقيل لبنت الخُسّ[3] : اي الرجال أحب اليكِ فقالت : القريب الآمال ، الواسع البال ، الذي يوفد عليه ولا يفد . وقال كاتب : الشكر[4] وان قلّ ، ثمن لكل نوالٍ وان جلّ . وقيل لبعضهم : اي اخوانك أوجب عليك حقّاً فقال : الذي يسد خالي ، ويغفر ذللي ، ويقيل عللي . وأوصى حكيمٌ رجلاً فقال : سائل العلماء ، وجالس الحكماء ، وخالط الحلماء . فان مجالستهم غنيمة ، وصحبتهم سليمة ، ومؤاخاتهم كريمة .

وخرج شبيب بن شبة من دار الخلافة فقيل له : كيف رأيت الناس فقال : رأيت الداخل راجياً ، والخارج راضياً . وقيل لصعصعة بن معوية : هل كان من مطر قال نعم حتى عفّى الاثر ، وأنضر الشجر ، ودهده الحجر . وسأل الحجاج رسوله

(١) في الاساس : فلان قصير الشبر مقارب الخلق . (٢) كذا في الاصل فليحرر .
(٣) ابنة الخُسّ مشهورة في الفصاحة عند العرب وهي من بني إياد جاءت عنها الامثال تقول اين بنت الخُسّ ، من فصاحة قس . (٤) في الهامش الشكر عند الكريم .

الراجع من السند اليه عنهـا فقال : ماؤها وشل ، ولصّها بطل ، وتمرها دقل [١] ، ان كُثر الجيش بها جاعوا ، وان قلوا ضاعوا . ووصف بليغ منطقاً فقال هذا كلام يكتفى باولاه ، و يُشتفى بأُخراه . وقال الجارود بن ابي سبرة سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخلّ العسل . وقال بليغ : ليس بكريم من لم تُذهب القدرة حفيظته ، والبلوى ضغينته .

ووصف اعرابي حرباً فقال : اولها شكوى ، واوسطها نجوى ، وآخرها بلوى . ووصف اعرابي رجلاً فقال : مارأيت أضرب لمثل ، ولا اركب لجمل ، ولا اصعد في قلل منه . وقال عمر بن عبدالعزيز ، انما هلك من كان قبلكم بمنعهم الحق حتى يشترى ، و بسطهم الظلم حتى يفتدى . وقال الخُسُّ لبنته أريد شراء فحل للابل . فقالت : ليكن أسجح [٢] الخدين ، غائر العينين ، ارقب [٣] اخزم [٤] اعكر [٥] اكوم [٦] ان عُمِّيَ غشم [٧] ، وان أُطيع تجرثم [٨] . ولما سئلت عن الفها الفلام قالت : طول السواد [٩] ، وقرب الوساد .

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة اشياء لا تنقص ولا تزيد . اللفظ والاشارة والعقدة والخط والنصبة وهي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات ، ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة عن صورة صاحبها ، وحلية مخالفة لحلية أُختها ، وهي التي تكشف لك عن اعيان المعاني في الجملة ، وعن حقائقها في التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها في السار والضار ، وعما يكون لغواً بهرجاً ، وساقطاً مطرحاً .

وانا ذاكر لك بعض الرواية في مدح الكتابة ونعت آلاتها ، وما يحتاج الكاتب

(١) أردأ التمر . (٢) الاسجح البعير الرقيق المشفر . (٣) الارقب الغليظ الرقبة . (٤) الاخزم المذلل ، وفي رواية الاحزم وهو الغليظ موضع الحزام مع شدة . (٥) كثير شحم السنام . (٦) الاكوم المرتفع السنام . (٧) غشم الراعي البعير غشماً هنأه بالهناء اي القطران لا يترك من الهناء شيئاً الا يتهناه يصبه على صحيحه وسقيمه . (٨) تجرثم اجتمع ولعله يعني بذلك استنتاخ . (٩) السواد بكسر السين مصدر ساوده اذا ساره .

ان يأخذ نفسه به فيها ، و يستعمله في احكامه و بحوثه ، من العلوم التي بها قوامه ونظامها ، ومنها موادها وعليها اعتمادها . قال احد الحكماء المنطقيين ، وزعماء الخطابة، وفرسان الكلام : ان الله جعل للكتابة حظاً بارزاً ، ومكاناً ظاهراً ، ومحلاً بادياً ، تدركه الابصار بالروية ، وتراه العيون بالابصار ، وتناله المشاعر بالاشتمال . يكون عند النسيان مرجعاً ، ولمن عدم ثقافة الذكاء مكرّاً ، وعند عوارض العلل مآباً . ثم سماه باحسن تسمية ، وحلاه باجلّ رتبة ، فسماه بالعربية عقلاً ، وجعل ذلك له شرفاً وفضلاً . فذلك تأويل الكتاب عند العلماء ، وتفسيره لدى الحكماء ، الذين يتأملون مخارج التدبير ، و يتفقدون إصابة التقدير . فتجمل في صدورهم حكمة الخلاّق العليم ، و يعلو في اعينهم آثار صنع المقتدر الحكيم . فتأخذ في افئدتهم محبة امره ، و يستولي عليهم رفق معادن حكمته ، والشغف بظاهر نوره ، وسمى منزاه له عاقلاً و بالفارسية دوفير اسپ ذو كتابة [1] ثم جعله نوراً يستضاء به ، ودليلاً يعتمد على هدايته ، وشاهداً يسكن الى عدالته ، وصوتاً يبلغ الآفاق في غير اشتراك من الكل في استماعه ، يسمع به النائي البعيد محله ، و يستتر عن الداني القريب قربه ، وسهماً صائباً لغرضه في غير تجرم للتوسطات دونه ، ومصاحباً يدرك به الكاتبون ما استتر على الامبين ، وهم في الحضور مشتركون ولا حضر منه (؟) مشرفون ، وحارساً لحقوق المستحقين ، وديون الفارمين ، من مقرض امهل ، ومبايع أجّل ، ومتاجر أخّر . هي مخاطبة غيبية ، ومناجاة خفية ، ومراسلة عقلية ، وأدعية حسية . مع دلالتها على الصانع الحكيم ، الذي جعل بين حظوظ العالمين ، على ابد الآبدين . فروقاً مميزة ، وفصولاً مبيّنة . كاختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وافتراق صورهم وابدانهم . فسبحان من ليس لقدرته شبه ، ولا يدرك لحكمته كنه ، وهو بكل شيء عليم .

ووجدنا هذا العلم الذي هو إناء الحق ووعاؤه ، وخالف الاشياء والبدل منها ، وصور الامور ومثالها ، محصّلاً بالحفظ ، محفوظاً محروساً بالعقل ، مجدّداً بالذكر ، مسترجعاً بالتذكر ، مستنبطاً بالتفكر . مقبولاً بالفهم ، مُتَلَقَّناً بالذكاء ، مستحضراً

(١) وفي هامش الاصل اي ذو خاطرين ولعل صوابه دودبير اي كاتبان .

بالذهن ، رابئاً بالتعهد ، مدركاً بالطلب الذي يدعو اليه الانتياب ، و يحدو عليه الحرص ، وتنجبه العناية ، وتأمر به الالباب ، وتثمره السعادة ، و يجمع امره التوفيق . ووجدناه كثير الآفات عند الاعداء ، مستجمع الاضداد ، حاضر الانداد . فالنسيان يذهب به ، والشغل يحول دونه . والوَنْية تقعده ، والفتور يفنيه ، والرَّين يعمّي على روّيته . والفدامة[1] تثبط عن دركه ، والاضراب يعفي سبيله ، والامراض تنهك آلته ، والعلل تخرّب محله ، والبطالة تخلّ به . والشيطان يصدُّ عنه ، والأمّارة بالشر تُعمي الطريق اليه . وملاك الامر فيما تأخذه به نفسك في اراغة المعاني ومساواة الالفاظ ، ورياضة الطبع في تخير الكلام ، واستعمال القريحة في اختلاف عرر الالفاظ ، ليتكامل حظك من الدربة ، ويقوى مضاؤك في مذاهب البلاغة . فقد قيل : ان رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير الالفاظ ، والمحنة (كذا) مقرونة بقلة الاستكراه .

وقد حكى عمرو بن بحر عن ابي الاشعث انه قال : قلت لبهلة الهندي ايام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند الى خدمة دار السلطان : ما البلاغة عند الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ولكن لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها . قال ابو الاشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فاذا فيها : اول البلاغة ، اجتماع آلة البلاغة . وذلك ان يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ، ولا الملوك بكلام السوقة . ويكون في قوله[2] .فضل للتصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ، و يصفيها كل التصفية ، و يهذبها غاية التهذيب . ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً وفيلسوفاً عليماً . ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام ، واسقاط مشتركات الالفاظ . ومن قد نظر في صناعة المنطق ، على جهة الصناعة ، لا على جهة الاعتراض والتصفح ، ولا على

(١) الفدامة مصدر فدم الرجل كان فدماً اي عيياً عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة . (٢) في كتاب الصناعتين : و يكون في قواه التصرف في كل طبقة .

جهة الاستطراف [١] والنظر . واعلم ان حق المعنى ان يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحالة له وفقاً . ويكون الاسم لا فاضلاً ولا مقصراً ، ولا مشتركاً ولا مضمناً . ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه اول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره ، في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً [٢] ، وللقول في تلك المقامات معاوداً .

ومدار الامر على افهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم ، وان تؤاتيه آلته ، وتتصرف معه أداته . ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً ، وفي حسن الظن بها مقتصداً . فانه ان تجاوز الحق في فقدان [٣] حسن الظن ، أودعها تهاون الآمنين [٤] ، ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل ، وقال بعض (بلغاء) الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة . ثم قال : ومن البصر بالحُجة ان يدفع الافصاح بها الى الكناية عنها ، اذا كان الافصاح بها أوعر طريقة . وربما كان الاضراب عنهـا صفحاً ، أبلغ من الدرك ، وأحق بالظفر . وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعاني ، او غمض بما شرد عنك من اللفظ وتعذر . « للبحث صلة »

---

(١) في الصناعتين : الاستطراف والتطرف لها . (٢) في الصناعتين بدلاً من جملة وللقول الخ هذا : ومعناه نيراً واضحاً . (٣) في الصناعتين : مقدار . (٤) في الصناعتين بعد تهاون الآمنين هكذا : وان تجاوز بها مقدار الحق في التهمة ظلمها ولكل ...